من بلاغة أبى إسحاق الحصرى و نقده
فى كتاب
زهر الآداب وثمر الالباب

د . عبد العزيز أبو سريع يس
مدرس البلاغة بالكلية

قبل أن نتحدث عن بلاغة أبي إسحاق الحصري ونقده في الكتاب المذكور يجب أن نؤكد على أمرين هامين : أولهما : يتصل بشخصية المؤلف حيث نميز بينه وبين أديب آخر قد يختلط به . وثانيهما : يتصل بكتابه حيث نربط بينه وبين كتاب آخر قد لا تكون له به علاقة ظاهرة للعيان .

أما عن الأول : فإنه ينبغي أن نعرف أن هناك أديبان قد اشتهرا بلقب الحصري ، لخروجهما من قرية واحدة ، هي قرية الحصر ، الواقعة قرب مدينة القيروان ، والمنسوبة إلى صناعة الحصر المعروفة أو بيعها أو كليهما معا ، هذان الأديبان هما : أبو إسحاق ، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري المتوفى ٤٥٣ هـ ، مؤلف الكتاب الذي نحن بصدده ، وابن خالته : أبو الحسن علي بن عبد الغني القهري المتوفى ٤٨٨ هـ ، صاحب القصيدة الشهيرة في الغزل (يا ليل الصب متى غده) .

وكلاهما قد أثرى المكتبة الأدبية ببليغ الأدب ، حيث إن للأول فضلا عن الكتاب المطبوع المحقق[1] الذي نحن بصدده كتابان مخطوطان هما : مختصر زهر الآداب المسمى (نور الطرف ونور الظرف) ، والمصون في سر الهوى المكنون ، وكتاب مطبوع آخر في الأدب أيضا هو : جمع الجواهر في الملح والنوادر ، هذا فوق أشعاره الرقيقة التي تحدثت عنها كتب التراجم .

أما الثاني : فله كتاب المستحسن من الأشعار الذي ألفه للمعتمد بن عباد ، وديوان اقتراح القريح واجتراح الجريح الذي طبعته وزارة التعليم بالمغرب

(١) توافر على هذا الكتاب محققان : أولهما : محمد زكي عبد السلام مبارك ، وقد طبعه مرتين ، الأولى في فبراير ١٩٢٥ ، والثانية في نوفمبر ١٩٢٩ ، وثانيهما : محمد محي الدين عبد الحميد ، وقد بدأ طباعته بعد وفاة الأول ، فكانت الطبعة الثالثة التي بيدي الآن عام ١٩٥٣ ، أول طبعة تظهر مشروحة من كلا هذين العالمين .

مؤخرا ، وهو مرتب على حروف المعجم فى رثاء ولد له ، هذا فضلا عن قصائده فى مدح المعتمد بن عباد ، وقصيدته فى القراءات التى تبلغ أكثر من مائتى بيت ، وقصائده (معشرات الحصرى) التى ماتزال مخطوطة .

وأما عن الثانى : فإن الخلافة الفاطمية التى بسطت نفوذها على مدينة القيروان قبل قليل من مستهل القرن الرابع الهجرى (٢٩٦ هـ) فى سبيل الترويج لمذهبها الشيعى أحيت التنافس بين العلماء والأدباء ، ومن هنا نربط بين كتاب أبى إسحاق إبراهيم بن على القيروانى (زهر الآداب وثمر الألباب) الذى قدمه لأبى الفضل العباس بن سليمان(١) ، وكتاب أبى على الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى ٤٥٦هـ (العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده) الذى قدمه إلى أبى الحسن على بن أبى الرجال الكاتب قائلا بعد حمد الله والثناء عليه(٢) : « أما بعد ، فإن أحق من جنى ثمر الألباب ، واقتطف زهر الآداب ، متنزها فى عقول الحكماء ، متفكها فى أقاويل العلماء ، بالغاً بهمته أعلى المراتب ، خاطباً لنفسه أسنى المطالب ، مستقراً فى أرفع ذروة ، متمسكا بأوثق عروة ، من عرف للعلم حقه وفضله ، وسلك به طرقه وسبله ، وأكرم فى الله مثواه ونزله ، وخص بالقرب ذويه وأهله ، فاستوجب من جميل الذكر ، وجزيل الذخر ، ماهو أزين فى الدنيا ، وأبقى فى الأخرى كالسيد الأمجد ، والفذ الأوحد ، حسنة الدنيا ، وعلم العليا ، وبانى المكارم ، وأبى المظالم ، رجل الخطب ، وفارس الكتب ، أبى الحسن على بن أبى الرجال الكاتب ، زعيم الكرم ، وواحد الفهم ، الذى نال الرياسة ، وحاز السياسة » .

وأول ماناحظه فى الربط بين الكتابين أن كليهما يهتم ببلاغة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته الأطهار خاصة سلالة السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) انظر ص٥ من الكتاب المذكور .

(٢) انظر جـ١/١٥ الكتاب المذكور بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، نشر دار الجيل ببيروت ، ط ٥ سنة ١٩٨١

وثانى ما نلاحظ أن ابن رشيق قد أخرج كتابه بعد أن اتكأ على المادة الغزيرة التى فرقها أبو إسحاق الحصرى فى كتابه دون ترتيب، فجمعها ورتبها وهذبها وبوبها ولا ننكر أنه أضاف إليها الكثير أيضا(١). ويجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر ملاحظة الدكتور زكى مبارك التى نؤكدها الآن بهذه الملاحظات وهى أن أبا إسحاق الحصرى قد ألف كتابه قبل وفاته بأكثر من عشرين عاما(٢). ودليل ذلك - كما قال رحمه الله - أن الحصرى ذكر أن أبا منصور الثعالبى كان حيا وقت تأليفه لكتابه، والمعروف أن الثعلبى قد توفى عام ٤٢٩ هـ، كما يجدر بنا أيضا أن نذكر ملاحظة علمائنا المتقدمين عن هذا الكتاب بأنه جمع كل غريبة.

وثالث ما نلاحظ أن ابن رشيق قد جعل كتابه للدراسة كثير من الموضوعات الخاصة بالشعر ونقده، أما الحصرى فكما سيأتى جعل كتابه مختارات من الأقوال البليغة دون أن يعلق عليها بالدراسة أو التوجيه إلا فى القليل النادر، وذلك ما جعل العلاقة بينهما غير بادية للعيان.

ثم أقول: افتتح أبو إسحاق الحصرى كتابه (زهر الآداب وثمر الألباب) بقوله(٣): «هذا كتاب اخترت فيه قطعة كاملة من البلاغات فى الشعر والخبر، والفصول والفقر، مما حسن لفظه ومعناه، واستدل بفحواه على مغزاه، ولم يكن شارداً حوشياً، ولا ساقطاً سوقياً».

والناظر فى هذا الافتتاح يرى أن أبا إسحاق فى جمعه لجيد الكلام البليغ قد اعتنى بالنص كله فلم يبتره شعراً أو نثراً، فصلا أو فقرة.

كما يرى أيضا أن شرط النص المختار لدى أبى إسحاق قد تعدى حدود صحة اللفظ والمعنى إلى حسنهما، كما قد تعدى دلالة الألفاظ على المعانى إلى دلالة فحوى الكلام على مغزاه.

---

(١) انظر للتدليل على ذلك مثالا - مما يخص هذا البحث - حديث كل منهما عن مبحث الاستطراد البديعى (زهر الآداب حـ ٤/١٠٤٢، والعمدة حـ ٢/٣٩).

(٢) انظر مقدمة الطبعة الثانية ص ١٨ (٣) ص ٣ (الجزء الأول).

كما يرى مرة ثالثة أن أبا إسحاق قد استبعد من جيد الأقوال البليغة المختارة لديه شوارد الكلام الحوشي ، وسواقط الكلام السوقي .

ومعنى هذا أن حدود البلاغة المختارة لديه تكون عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة ، وذلك أمر يكاد يتفق مع الفكر البلاغي الحديث ، ذلك أن هذه الحدود تشمل معالم « الفن الأدبي الذي يتخـــذه الأديب وسيلة للاقناع أو التأثير »[١] .

وإذا ما انتقلنا الآن إلى تفصيل هذه الأمور الثلاثة عند الحصري نجد أنه في إطار النص الأدبي الكامل يشرح قول الحاتمي عن القصيدة الشعرية : « مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فيقـول[٢] : « وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة ، لا ينفصل جزء منها عن جزء » .

وأقول : إن الحصري بهذا القول يرد اعتبار قصائدنا العربية التي طالما هوجمت بانفصال أبياتها وانعدام الوحدة العضوية فيها ، بل ويكاد يصل إلى الوحدة الأدبية الحـــديثة التي تشمل اتحاد العناصر الشعورية والنفسية والفكرية والبنائية[٣] ، ذلك أن أمر اتحاد هذه العناصر لا يكون تاماً إلا إذا وصلت القصيدة — كما يقول الحصري — ليس فقط إلى تجنب شوائب النقصان ، بل إلى محـــه الإحسان عن طريق تناسب أجزائها صدرا وعجزا ، وتمازج أفكارها غرضا ومعنى .

---

(١) الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب ، ص ٤١ — مكتبة النهضة المصرية ط ٧

(٢) زهر الآداب ج ٣ / ٦١٥

(٣) راجع كتاب الدكتور علي عشري زايد (عن بناء القصيدة العربية الحديثة) ص ٢٦

على أن الحصرى قد نبه من خلال مارواه عن عمر بن العلاء إلى أن على الشاعر ألا يطيل فى التقديم لغرض القصيدة الأصلى حتى لاتخبو عاطفته الشعرية فلا تستطيع الوفاء بما هو معلق عليها من جيد الفن الشعرى ، يقول الحصرى راوياً حديث عمر بن العلاء للشعراء[1]: «قال إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية، يمدح عمر بن العلاء :

إنى أمنت من الزمان وديبه	لما علقت من الأمير حبالا
لو يستطيع الناس من إجلاله	لحذوا له حر الوجوه نعالا
ما كان هذا الجود حتى كنت يا	عمر ، ولو يوماً تزول لزالا
إن المطايا تشتكيك لأنها	قطعت إليك سباسباً ورمالا
فإذا وردن بنا وردن مخفة	وإذا صدرن بنا صدرنه ثقالا

روى أن عمر بن العلاء وصله عليها بسبعين ألف درهم ، فحسدته الشعراء، وقالوا : لنا بباب الأمير أعوام نخدم الآمال ، ما وصلنا إلى بعض هـذا ! فاتصل ذلك به ، فأمر بإحضارهم ، فقال : بلغنى الذى قلتم ؛ وإن أحدكم يأتى فيمدحنى بالقصيدة يشبب فيها فلا يصل إلى المدح حتى تذهب لذة حلاوته ، ورائق طلاوته ، وإن أبا العتاهية أتى فشبب بأبيات يسيرة، ثم قال: إن المطايا تشتكيك لأنها ... وأنشد الأبيات » .

وفى إطار النص الأدبى أيضا نرى الحصرى يرصد العرف العربى فى طريقة عرضه ، ويبين أنها لاتعتمد الإيجاز أو الأطناب طريقاً دائما ، وإنما تعتمد الوفاء بحق الموضوع نفسه إيجـازاً أو إطناباً وفق مقتضى الحال ، ولذلك يقول عن النقاد العرب[2] : «وقد مدحوا الإطالة فى مكانها ، كما

---

(١) زهر الآداب جـ ٢ / ٣٤٤ ، ٣٤٥

(٢) زهر الآداب جـ ١ / ١١٤

مدحوا الإيجاز فى مكانه ، كما ينقل عن أبى داود قوله[1] : « الخروج عما بنى عليه الكلام إسهاب ، أى إطالة مذمومة .

وأقول فى التعقيب على هذه الفكرة من الحصرى : إنها جديدة على الفكر البلاغى ليس فقط قبل الحصرى ، ولكن بعد الحصرى أيضا ، فالبلاغيون آن تقعيد الفكر البلاغى ساروا على ما قرره أبو هلال العسكرى (المتوفى ٣٩٥ هـ) فى تقسيم عرض النص الأدبى إلى ثلاثة أقسام : إيجاز وإطناب ومساواة[2] ، كما ساروا على تقسيم الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف ذلك التقسيم الذى قرره أبو هلال أيضا[3] ، ولم يلتفت أحد منهم إلى ما ذكره الحصرى .

ويجدر بى فى هذا المقام أن أشيد بأستاذى الدكتور محمد رجب البيومى الذى وقع على هذا الرأى أيضا فى عصرنا الحديث فقال مفصحاً عنه وموضحاً له فى كتابه « البيان القرآنى »[4] : « يجب أن ننظر إلى الإيجاز والإطناب فى ضوء الموضوع الكلى لا فى نطاق الآية الجزئية ، لأننا إذا اتفقنا على أن كلا من الإيجاز والإطناب تكون بلاغته وفق مقتضى الحال فلن تتضح هذه البلاغة اتضاحا كاملا إلا باستعراض موقف مكتمل ليرى الدارس من خلال النص المتماسك ما يستتر خلف الألفاظ من معانى يوحى بها المقام فيدرك حقيقة الإيجاز فى موضعه ، كما يلمس ما يتطلب الموقف من إشباع للقول ، وامتداد للنفس فيدرك طبيعة الإطناب حين يتطلبه » .

---

(١) المرجع السابق جـ ١ / ١١٥

(٢) الصناعتين ٨٥ ، شروح التلخيص جـ ٣ / ١٧٠

(٣) الصناعتين ١٨١ ، شروح التلخيص جـ ٣ / ١٧٠

(٤) البيان القرآنى ص ١٠٢ (سلسلة البحوث الإسلامية - عدد مايو ١٩٧١ - بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر) .

ونأتى الآن إلى دائرة شروط النص المختار عند الحصرى ، والظاهر أنه جعلها فى جانبين : جانب سلبى ، وجانب إيجابى . الجانب السلبى ، ويستبعد فيه الحصرى شوارد الكلام الحوشى ، وسوانط الكلام السوقى .

أما الجانب الإيجابى . فقد ذكر فيه الحصرى أنه لابد أن يكون النص حسن اللفظ والمعنى ، كما أنه لابد أن يدل فحواه على مغزاه .

ولايكاد قارىء كتاب الحصرى يقع على أمثلة الجانب السلبى ، ذلك أنه قد استبعدها من مختاراته ، لكننا نستطيع أن نلتقط بعض قلقه من لفظة أو جملة أو صورة لاتصل إلى أن تكون فى الجانب الذى استبعده ، لكنها على كل حال تدلنا على حسن المرهف فى تذوق النص المختار لديه ، كما تفيدنا فى أن تكون بدايه الحديث عن حسن اللفظ والمعنى معاً عند الحصرى، ذلك الحديث الذى هو حديث الجانب الإيجابى .

ذكر الحصرى قول المتنبى :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف فى الشجب
فقيل : تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل : تشرك جسم المرء فى العطب

ثم قال(١) : « الشجب : الموت ، وهى لفظة معروفة ، وإن كانت غير مألوفة عند أهل النقه ، وقد أنكرها البحترى على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى مجاذبته إياه حيث يقول :

ولو أن الحكيم وازن فى اللـ ... ـفظ واختار لم يقل شجبه

وأقول معقباً على وقفة الحصرى أمام لفظة (الشجب) : إن الحصرى ليس ذواقاً للأدب ذو حس مرهف فقط ، وإنما هو عظيم الأدب فى الإعراب

---

(١) زهر الآداب جـ ٤ / ١١٢٠

عن قلقه من لفظة - على حد قوله - معروفة غير مألوفة ، ذلك أنه قد أشعرنا أن أهل الأدب والنقد يشاركونه هذا القلق .

ثم أقول : إن فى اختيار البحترى شاهداً على تذوقه الرائع ذليلا آخر على رفعة الحس الأدبى عند الحصرى ، ذلك أن البحترى هو الشاعر الذى شهد له إمام البلاغة العربية عبد القاهر الجرجانى بالأداء الرائع للمعانى ، حيث يقول فى أسرار البلاغة[1] : « إنك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب مايعطى البحترى ، ويبلغ فى هذا مبلغه » .

وقد تزداد اعترافاً بتذوقه وأدبه فى آن واحد عندما ندرك أنه اختار لإسحاق الموصلى بيتاً من الشعر فيه جملة قلقة فغيرها ، ثم قدم لنا قصة فحواها أن هذا التغيير الذى وقع له هو الذى وقع لإسحاق الموصلى عندما سمع هذا البيت فى ظل الغناء والتلحين الذى هو العمدة فى كشف قلق الألفاظ والمعانى - كما يعرفه أهـــل الفن . يقول الحصرى[2] : « شخص إسحاق الموصلى إلى الواثق بسر من رأى ، وأهله ببغداد ، فتصيد الواثق وهو معه إلى نواحى عكبراء ، فلما قرب من بغداد قال :

طربت إلى الأصبية الصغار ... وهاجك منهم قرب المزار
وكل مسافر يزداد شوقاً ... إذا دنت الديار من الديار

ولحنه وغناه الواثق ، فاستحسنه وأطربه ، فصرفه إلى بغداد على ما أحب ، وكان إسحاق قال أولا :

وكل مسافر يشتاق يوماً ... إذا دنت الديار من الديار

---

(١) أسرار البلاغة جـ ١ / ٢٧٢ تحقيق د . محمد عبد المنعم خفاجى .
(٢) زهر الآداب جـ ٢ / ٥٢٠

فعابوا قوله (يوما) وقالوا : هى لفظة قلقة فى هذا الموضع ، لم تحل بمركزها ، ولا لها هنا موقع ، قال . فضعوا مكانها مثلها لاخيراً منها ، فما استطاعوا ذلك ، فغيرها إلى ماأنشدت أولا » .

هذا عن اللفظة والجملة ، أما عن الصورة والخيال فيقول الحصرى[1] : « من المعانى ما لا ينقلب : ألا ترى أنك تقول : نام القوم حتى كأنهم موتى ، ولا يحسن أن تقول : ماتوا حتى كأنهم نيام ، وقد أخذ على أبى نواس قوله يصف داراً وقف بها :

كأنها إذ خرست جارم ... بين يدى تفنيده مطرق

قالوا : إنما يجب أن يشبه الجارم إذا عذلوه فسكت وانقطعت حجته بالدار الخالية التى لاتجيب .

وأخذوا عليه قوله :

كأن نيراننا فى جنب حصنهم ... معصفرات على أرسان قصار

وقد تبعه أبو تمام الطائى فقال فى الأفشين لما أحرق :

مازال سر الكفر بين ضلوعه ... حتى اصطلى سر الزناد الوادى
نار يساور جسمه من حرها ... لهب كما عصفرت شق إزار
طارت لها شعل يهدم افحها ... أركانه هدماً بغير غبار
فعلن منه كل مجمع مفصل ... وفعلن فاقرة بكل فقار
صلى لها حياً ، وكان وقودها ... ميتاً ، ويدخلها مع الكفار
وكذاك أهل النار فى الدنيا هم ... يوم القيامة جل أهل النار

أردت البيت الثانى ، قالوا : وإنما تشبه الثياب المعصفرة بالنار ، فهذا وما أشبهه لايتوازن انعكاسه ، وتتضاد قضاياه ، وإنما يصح القلب فيما يتحقق تضاده أو يتقارب » .

(١) زهر الآداب جـ ٢ / ٤١٤ ، ٤١٥

وأقول معقبا : إن قضية قلب المعانى ذات خطر كبير فى البلاغة ، وقد كان على الحصرى ، وهو الأديب الذواقة ، أن يفحصها فحصا فنيا مبينا حدودها وضوابطها وتفنن الشعراء فيها ، كما فعل الإمام عبد القاهر حيث استعرض فى باب التشبيه كثيرا من الأمثلة التى قلب الأدباء فيها المعانى فجعلوا الفرع أصلا ، والأصل فرعا ، فشبهوا النجوم بالمصابيح ، والمصابيح بالنجوم ، وشبهوا الخد بالورد ، والورد بالخد ..... الخ ، ثم قال مبينا القاعدة فى ذلك(١) : «وهذا كثير جدا وتتبعه فى كل باب ونوع من التشبيه يشغل عن الغرض من هذه الموازنة » - أى موازنة التشبيه والتمثيل التى كان بصددها - وإنما يمتنع هنا القلب فى طرفى التشبيه لسبب يعرض فى البين (٢) فيمنع منه ، ولا يكون من صميم الوصف المشترك بين الشيئين المشبه أحدهما بالآخر ، فمن ذلك - وهو أقواه فيما أظن - أن يكون بين الشيئين تفاوت شديد فى الوصف الذى لأجله يشبه به ، ثم قصدت أن تلحق الناقص منهما بالزائد مبالغة ودلالة على أنه يفضل أمثاله فيه .

« بيان هذا أن ههنا أشياء وهى أصول فى شدة السواد كخافية الغراب والقار ونحو ذلك ، فإذا شبهت شيئا بها كان طلب العكس فى ذلك عكسا لما يوجبه العقل ونقضا للعادة ، لأن الواجب يثبت المشكوك فيه بالقياس على المعروف ، لا أن يتكلف فى المعروف تعريف بقياسه على المجهول ، وما ليس بموجود على الحقيقة ، فأنت إذا قلت فى شىء : هو كخافية الغراب فقد أردت أن تثبت له سوادا زائدا على مايعهد فى جنسه ، وأن تصحح زيادة مجهولة له . وإذا لم يكن ههنا ما يزيد على خافية الغراب فى السواد ، فليت شعرى ما الذى تريد من قياسه على غيره فيه ! » .

على أن الإمام عبد القاهر يذكر فى أسباب جواز قلب المعانى التشبيهية

---

(١) أسرار البلاغة ج ١/٧١ ، ٧٢ (٢) أى فى التفاوت فى الوصف .

ألا يؤدى القلب إلى وقوع التناقض فيها ، ولذلك يجيز [١] قول ابن المعتز :

والليل كالحلة السوداء لاح به من الصباح طراز غير مرقوم

لأنه لم يقع تناقض المعانى . ويحال قول الآخر :

وكأن الشمس المنيرة دينا رجلته حـــدائد الضراب

فيقـول[٢] : « حسن مقبـول وإن عظم التفاوت بين نور الشمس ونور المرآة والدينار أو الجرم ، لأنك لم تضع التشبيه على مجرد النور والائتلاق ، وإنما قصدت إلى مستدير يتلألأ ويلمع » .

ثم يأتى فى نهاية دراسته التحليلية للأمثلة التى ذكرها فى معرض عدم تناقض المعانى ليقول ملخصا حدودهـا [٣] « وجملة القول أنه متى لم يقصد ضرب من المبالغة فى إثبات الصفة للشىء ، والقصد إلى إيهام فى الناقص أنه كالزائد ، واقتصر على الجمع بين الشيئين فى مطلق الصورة والشكل واللون ، أو جمع وصفين على وجه يوجد فى الفرع على حد ، ويوجد هو أو قريب منه فى الأصل ، فإن العكس يستقيم فى التشبيه ، ومتى أريد شىء من ذلك لم يستقيم » .

وقد يبيح الإمام عبد القاهر للأدباء قلب المعنى فى التشبيه الذى أرادوا فيه المبالغة ، إذا تخيلوا على عاداتهم أن يوهموا فى الشىء هو قاصر عن نظيره فى الصفة أنه زائد عليه فى استحقاقها واستيجاب أن يجعل أصلا فيها ، ولذلك أجاز قول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

قائلا[٤] : « فهـذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم

---

(١) أسرار البلاغة جـ ١/٧٤ (٢) أسرار البلاغة جـ ١/٧٤

(٣) المرجع السابق جـ١/٧٤ ، ٧٥

(٤) أسرار البلاغة جـ١/٧٥

وأكمل فى النور والضياء من الصباح فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعا ووجه الخليفة أصلا » .

وقد يزداد التخيل عند الشعراء حتى نصل إلى حديث قلب المعانى عن طريق تشبيه الحقيقة بالمجاز ، وفى هذا المجال يستعرض الإمام عبد القاهر قضيته قلب المعانى فى التمثيل* ، ويحلل قول القاضى التنوخى :

وكأن النجوم بين دجاه   سنن لاح بينهن ابتداع

ويبين أن القلب هنا مبنى على التأويل والتخيل الذى يخرج من الظاهر خروجا كبيراً ، ويبعد عنه بعداً شديدا ، ذلك أن السنن ليست بشيء يتراءى فى العين فيشتبه بالنجوم ، ولا ههنا وصف من الأوصاف المشاهدة يجمع السنن والنجوم ، ولكن لما كانت الضلالة والبدعة وكل ما هو جهل تجعل صاحبها فى حكم من يمشى فى الظلمة فلا يهتدى إلى الطريق ، ولا يفصل الشيء عن غيره حتى يتردى فى مهواه ، ويعثر على عدو قاتل ، وآفة مهلكة ، لزم من ذلك أن تشبه بالظلمة ، ولزم على عكس ذلك أن تشبه السنة والهدى والشريعة وكل ما هو علم بالنور (١) .

وليس حديث قلب المعانى مقصورا على الخيال التشبيهى ، إنه يشمل الخيال الاستعارى أيضا ، ومن ذلك حديث البلاغيين عن الاستعارة العنادية المطلقه ، أو العنادية التهكمية ، ذلك الحديث الذى أجمله الامام عبد القاهر بصورة موجزة ، وفصله تلميذه الخطيب القزوينى أحسن تفصيل ، وقد تناولناه من قبل فى بحثنا لرسالة العالمية ، ومن ثم فلا مجال لاعادته هنا حيث هو قار فى مكانه هناك لا يفوته من يطلبه(٢) .

(*) التمثيل عند الإمام عبد القاهر هو تشبيه وجهه يحتاج إلى التأويل ، وأغلب ما يكون ذلك فى وجه الشبه العقلى ، كضرب النور مثلا للقرآن ، والحياة مثلا للعلم .

(١) زهر الآداب ج ١/٧٨

(٢) راجع هذا الحديث ص ٢١١ ، ١١٢ من الرسالة المذكورة ، وهى مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة ، وعنوانها (المجاز اللغوى فى البلاغه العربية) .

رات .com

وإذا كان لنا الآن أن نختم حديث الحصرى عن الجانب السلبي فى دائرة شروط النص المختار لديه فإن انا أن نفتتح حديث الجانب الإيجابى عنده فى هذه الدائرة بما نقله من قول سليمان بن عبد الملك ـ الخليفة الأموى ـ[1] : « ماسألنى أحد قط مسألة يثقل على قضاؤها ، ولا يخف على أداؤها ، بلفظ حسن يجمع له القلب فهمه إلا قضيتها ، وإن كانت العزيمة نفذت فى منعه ، وكان الصواب مستقراً فى دفعه ، ضنا بالصواب أن يرد سائله ، أو يحرم نائله » .

القارىء لهذا القول الذى نقله الحصرى يستشعر عدة أمور :

أولاها : أن اللفظ الحسن هو نص أدبى متكامل يؤدى معنى .

ثانيها : أن اللفظ الحسن هو اللفظ الذى يستجمع السامع له عقله وقلبه ليفهمه .

ثالثها : أن اللفظ الحسن يحظى بمرتبة الصواب عند النقاد .

رابعها : أن اللفظ الحسن هو المؤثر الأول على متلقى العمل الأدبى .

وقبل أن نشرح هذه الأمور الأربعة نود أن أنبه إلى نقطتين :

النقطة الأولى : أن علائق الاتصال القوى بين اللفظ والمعنى ستحول بيننا وبين إفراد الحديث عن اللفظ ، ومن ثم فقد يتطرق الحديث إلى حسن المعنى أيضا .

النقطة الثانية : أن محاولة شرح هذه الأمور شرحاً وافياً من أجل استبانة غرض الحصرى من حسن اللفظ تخرجنا عما نحن فيه من حدود المقال الموجز إلى حدود التأليف المتكامل ، ومن ثم فقد يكون هناك بعض الإحالات أعتذر مقدماً للقارىء عنها .

(١) زهر الآداب جـ ٤ / ١٠٦٩ .

وعن الأمر الأول يمكن أن نشير على سبيل الإجمال إلى أن الحصرى قد بين حسن اللفظ من خلال شرح علاقة اللفظ بالمعنى الذى يحمله عند حديثه عن الدلالات اللفظية وغير اللفظية التى نقلها عن الجاحظ[١] ، وعند حديثه عن إبانة اللفظ للمعنى الذى نقله عن ابن المعتز والجاحظ وغيرهما[٢] .

كما يمكن أن نشير إلى أن الحصرى قد شرح - عملياً - حسن اللفظ من خلال شرح علاقة اللفظ بالموضوع الذى هو فيه. وذلك هو حديث مختاراته الجيدة لجميع مقامات الكلام كالوصف والرثاء والمديح والاعتذار وغير ذلك مما هو لب الكتاب وجوهره .

كما يمكن أن نشير مرة ثالثة إلى أن الحصرى قد شرح - عمليـاً أيضا - حسن اللفظ من خلال بحث علاقة اللفظ بالأديب. وذلك فى اختياره ماذكره من الأحاديث المعجبة لمختلف الطوائف المهنية[٣] .

أما عن الأمر الثانى فإننا يكفى أن نشير إلى القصة المشهورة التى تذكرها جل كتب الأدب ، ومنها كتاب الحصرى الذى معنا ، حيث نخالها وتعليق الحصرى عليها توجز المقصود من هذا الأمر[٤]، وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، فقال الزبرقان: يارسول الله ! أنا سيد تميم ، والمطاع فيهم ، والمجاب منهم ، آخذ لهم بحقهم ، وأمنعهم من الظلم ، وهذا يعلم ذلك - يعنى عمرا .

فقال عمرو : أجل يارسول الله ؛ إنه مانع لحوزته ، مطاع فى عشيرته ، شديد العارضة فيهم .

---

(١) انظر زهر الآداب جـ ١/١١٧ .
(٢) المرجع السابق جـ ١ / ١٠٨ - ١١٦ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ / ١٢٤ - ١٢٦ .
(٤) المرجع السابق جـ ١ / ٨ ، ٩ .

فقال الزبرقان : أما إنه والله قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى !

فقال عمرو : أما لئن قال ماقال ؛ فوالله ماعلمته إلا ضيق العطن ، زمر المروءة ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، حديث الغنى[1] .

فرأى الكراهية فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله ، فقال : « يارسول الله ، رضيت فقلت أحسن ماعلمت ، وغضبت فقلت أقبح ماعلمت ، وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الثانية ! » .

هذه هى القصة ، وأما تعليق الحصرى فهو قوله عن العرب[2] : « كانوا يسمون الكلام الغريب (السحر الحلال) ، ويقولون: اللفظ الجميل من إحدى الغفائات فى العقد » .

وأقول معقبا :

إن الغرابة هنا هى حسن التصرف فى القول ، وحسن التعمق فى المعنى ، لا كما فهم بعض البلاغيين[3] « أن عمراً لما مدحه ـ أى الزبرقان ـ أولا ثم ذمه كان كلامه متدافعاً يلوح عليه علامة الكذب » .

دليل ذلك قول الآمدى فى الموازنة[4] : « وقد تصرف شعراء الجاهلية والإسلام فى وصف آثار الديار أحسن تصرف ، وأتوا فيه بكل تشبيه مستحسن ، ومعنى مستغرب فمنه قول طرفة :

تلوح كبا فى الوشم فى ظاهر اليد[5]

---

(١) ضيق العطن : كناية عن البخل ، وزمر المروءة : أى قليلها .
(٢) زهر الآداب ج ١/١٠ .
(٣) طراز المجالس للشهاب الخفاجى ص ٣٤٤ .
(٤) الموازنة بين أبى تمام والبحترى ص ٢٨٩ .
(٥) صدر البيت : لخولة أطلال ببرقة ثهمد ، وهو مطلع معلقة طرفة .

الوشم : آثار الحناء ، وخص ظاهر اليد لأن دروسه أسرع .

وقال لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامهـــا

وهذا مازلت أسمع العلماء تعجب من حسنه ولطافة معناه ، وكان الفرزدق إذا أنشده يسجد ويقـــول : إنا نعرف مكان السجود فى الشعر كما تعرفونه فى القرآن » .

ونحن بذلك نبتعد عن الغرابة التى هى عيب فى الكلام البليغ ، تلك الغرابة التى يمكن أن نفرق بينها وبين مانحن فيه بما يلى :

أولا : تكون الغرابة المعيبة فى استعمال الكلمات الغريبة الوحشية التى لاتتكرر كثيرا فى كلام العرب ، مثل[1] « قول بعض الأمراء وقد اعتلت أمه فكتب رقاعا وطرحها فى المسجد الجامع بمدينة السلام : صين امرؤ ورعى ، دعا لامرأة إنقحلة مقسئنة ، قد منيت بأكل الطرموق ، فأصابها من أجله الاستمصال ، أن يمن الله عليها بالاطرغشاش والإبرغشاش » .

يقول أبو هلال العسكرى : « فكل من قرأ رقعته دعا عليها ، ولعنه ولعن أمه » .

ثانيا : تكون الغرابة المعيبة فى استبهام المعنى نتيجة تعليق الأديب بعض ألفاظه ببعض - كما يقول أبو هلال العسكرى - وذلك هو الذى يسميه البلاغيون المعاظلة ، نحو قول أبى تمام :

جارى إليه البين وصل خريدة
ماشت إليه المطل مشى الأكبد

---

(١) انظر الصناعتين ص ٥٢ - والطرموق : الطين ، والاستمصال : الإسهال ، اطرغش وابرغش إذا أبل وبرأ .

يايوم شرد يوم لهـوى لهوه
بصبابتى وأذل عـــز تجلدى
يوم أفاض جوى أغاض تعزياً
خاض الهوى بحرى حجاه المزبد

يقول الآمدى فى شرح أخطاء أبى تمام فى البيت الثانى[١] : « فهذه الألفاظ - أى ألفاظ هذا البيت - إلى قوله : (بصبابتى) ، كأنها سلسلة فى شدة تعلق بعضها ببعض ، وقد كان أيضا يستغنى عن ذكر اليوم فى قوله (يوم الهوى)، لأن التشريد إنما هو واقع بلهوه ، فلو قال : (يايوم شرد لهوى) لكان أصح فى المعنى من قوله (يايوم شرد يوم الهوى) وأقرب فى اللفظ ، فجاء باليوم الثانى من أجل اليوم الأول ، وباللهو الثانى من أجل اللهو الذى قبله ، ولهو اليوم أيضا بصبابته هو من وساوسه وخطائه .

كما يقول أيضا فى شرح أخطاء البيت الثالث[٢] : « جعل اليوم أفاض جوى ، والجوى أغاض تعزيا ، والتعزى موصولا به خاض الهوى إلى آخر البيت وهذا غاية ما يكون من التعقيد والاستكراه ، مع أنه قال : أفاض وأغاض وخاض ، وهى ألفاظ أوقعها فى غير مواقعها ، وأفعال غير لائقة بفاعلها .

وكذلك خوض الهوى بحر التعزى معنى فى غاية البعد والهجانة ... ولا يوصف العقل بالإزباد ، وإنما يوصف به البحر ، وهـــذا وإن كان يتجاوز فى مثله فإنه الوجه الأردأ ، عدل به إليه خبث الطريقة عن الوجه الأوضح .

---

(١) الموازنة ص ٢٩٥ .
(٢) المرجع السابق ٢٩٦/٢٩٧ .

وأما عن الأمر الثالث فقد يكون المقصود منه القضية التي أثارها الجاحظ بقوله[١] : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي والمدني ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من من النسج وجنس من التصوير » .

وهذه القضية قد انحرف الفهم فيها عند بعض المحدثين إلى القول بأن الجاحظ يفضل اللفظ على المعنى ، مع أن مقصود الجاحظ أن الصياغة اللفظية - بعد إصابة فحر المعنى - هي الأمر الذي يتم به الصواب ، كما جاء على لسان الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك في القصة التي رواها الحصري .

يؤيد ذلك العرف العام عند الأدباء ، ومنه اختيار الحصري لقول إبراهيم ابن العباس عن فن الكتابة الجيدة[٢] :

إذا ما الفكر أضمر حسن لفظ ... وأداه الضمير إلى العيان
روشاه وتمثمه مسد ... فصيح بالمقال وباللسان
رأيت حلى البيان منورات ... تضاحك بينها صور المعاني

وأما عن الأمر الرابع فقصة الحصري نفسها تشهد بأن اللفظ الحسن هو المؤثر الأول على العمل الأدبي ، يشهد لذلك ما رواه صاحبه عيار الشعر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] : « ما خرج من القلب وقع في القلب ، وما خرج من اللسان لم يتعد الآذان » .

هذه هي الأمور الأربعة التي هي في الصميم من حديث حسن اللفظ عند الحصري - كما نعتقد - شرحناها وإن كنا - كما قد نبهنا من قبل - أننا لم نستطع الإفلات من حديث حسن المعنى أيضا .

(١) البيان والتبيين جـ ٤ / ٢٤ .
(٢) زهر الآداب جـ ٢ / ٥٢٨ (٣) عيار الشعر ص ٢١ .

وإذا كان علينا الآن نفرد حديثا لحسن المعنى عند الحصرى فوق ما قدمناه ، فإننا ننبه أيضا إلى أن هذا الحديث قد يشمل جانباً آخر من حديث حسن اللفظ لم نتعرض له من قبل .

وقد يكون حق هذا المقال علينا أن نوجز حديث حسن المعنى فى نقطتين:

النقطة الأولى : ونرى فيها أن المعنى الحسن عند الحصرى هو المعنى المصيب الذى يحقق الغرض الأدبى العام للأديب سواء فى ذلك أكان غرض إقناع أم غرض إمتاع .

وفى سبيل الاستدلال على ذلك يمكن أن نقول : إن الحصرى قد قام بتسجيل معظم المعانى المصيبة لعصره والمتقدمين على عصره تحت عناوين كلها تنبىء عن اختياره لها .

وهذا التجمع الهائل للمعانى المصيبة الجيدة أمر يحمد للحصرى من جانب وينم من جانب آخر .

أما عن جانب الحمد فإن الحصرى قد سجل فى هذا المقام أوليات كثير من المعانى ، وكثير من الأساليب ، ومن أمثلة ذلك ماسجله للنابغة الذبيانى من أنه أول من استثار معنى الصدر الذى يحمل الهم ويأويه ليلا كما تأوى النعم السارحة إلى حظائرها ليلا فى قوله :

كلينى لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقضى ... وليس الذى يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازب همه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب

يقول الحصرى[1] : « معنى قول النابغة : (وصدر أراح الليل عازب همه) أنه جعل صدره مأوى للهموم ، وجعل الهموم كالنعم السارحة الغادية ، تسرح نهاراً ثم تأتى إلى مكانها ليلا ، وهو أول من استثار هذا المعنى ،

(١) زهر الآداب جـ ٣ / ٧٦٧ .

ووصف أن الهموم مترادفة بالليل لتقييد الألحاظ عما هى عليه مطلقة فيه بالنهار ، واشتغالها بتصرف اللحظ عن استعمال الفكر » .

« ومن أنه أول من نبه إلى معنى هرب الإنسان من ممدوحه فى قوله للنعمان بن بشير(١) :

فإنك كالليل الذى هو مـــدركى   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
خطاطيف حجن فى حبال متينة   تمــد بها أيد إليك نوازع

وقد يفيد هذا الحديث بالنسبة للبلاغة العربية محاولة رائعة لتأريخ المعانى والأساليب الأدبية ، أما بالنسبة للنقد الأدبى فإنه يساهم أعظم المساهمة فى الكشف عن السرقات الأدبية .

وقد أقول على سبيل الاستطراد الذى يملأ به الحصرى كتابه لأدنى ملابسة: إن الحصرى يرى السرقة فاحشة إذا قصر السارق فى أخذه ، ويراها حسنة إذا زاد السارق فى الصنعة الأدبية ، وسأنقل الآن نصه الرائع الذى يفيد البلاغة والنقد على النحو الذى يبغياه ، يقول الحصرى(٢) : « وإن من أحسن شعر العتابى قصيدته التى مدح بها الرشيد وأولها :

يا ليلة لى فى حوران ساهرة   حتى تكلم فى الصبح العصافير

وقال فيها :

أفى الأماق انقباض عن جفونهما   أم فى الجفون عن الاماق تقصير

وهذا البيت أخذه من قول بشار الذى أحسن فيه كل الإحسان ، وهو قوله :

جفت عينى عن التغميض حتى   كأن جفونها عنهـــا قصار

---

(١) انظر المرجع السابق حـ ١٠٥٨/٤ .
(٢) زهر الآداب حـ ٩٧٢/٤ .

فسخه العتابي ، على أن بشاراً أخذه من قول جميل :

كأن المحب لطـــول السهاد قصير الجفون ولم تقصر

إلا أن بشاراً أحسن فيه ، فنازعهما إياه فأساء ، وإن حق من أخذ معنى قد سبق إليه أن يصنعه أجود من صنعة السابق إليه أو يزيد عليه ، حتى يستحقه . وأما إذا قصر عنه فهو مسيء معيب بالسرقة ، مـــذموم على التقصير » .

وأقول أيضا : لقد أفاد حديث تسجيل أوليات المعاني الأدبية أديبنا أبا إسحاق الحصري في الكشف عن مبحث بديعي هام هو مبحث الاستطراد، أي الانتقال من معنى إلى معنى آخر أو أكثر ، ثم الرجـــوع إلى المعنى الأول .

يقول الحصري في الحديث عن مبحث الاستطراد [١] : « وهذا معنى قد أعجب المحدثين ، وتخيلوا أنهم لم يسبقوا إليه ، وقد تقدم لمن قبلهم .

قال أبو إسحاق : وأول من ابتكره السموءل بن عادياء اليهودي ، وكل أحد تابع له فقال :

وإنا أناس لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وســـلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول ،

وقد أقول على سبيل الاستطراد أيضا : إن من يقرأ حديث ابن رشيق في هذا المبحث البديعي [٢] يستطيع بسهولة أن يحدد أن مصدر الأول - إن لم يكن الأوحد - هو حديث أبي إسحاق الذي قدمناه ، ومع هذا فقد تجاهله أستاذنا الدكتور أحمد موسى في كتابه (الصبغ البديعي في اللغة العربية) ، ونقل

---

(١) المرجع السابق حـ ٤/١٠٤٢
(٢) انظر العمدة حـ ٢/٣٩

الحديث عن ابن رشيق ولم يشر إلى أبي إسحاق لامن قريب ولا من بعيد[١] .

وقد أقول أيضا : إن من فوائد دراسة الحصرى لحسن المعانى الوصول إلى الحكم النقدى الذى نقله على لسان محمد بن مكرم الكاتب[٢] : « من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبي العيناء إذا أحسن بكرم ، أو شرع فى طمع ، فقد ظلم » .

وأما عن جانب الذم فإننا نرى أن الحصرى بما قدمه من المعانى والأساليب الأدبية المثالية قد يفتح باب الجمود الأدبى ، ذلك أنه قد جعل التراكيب والمعانى كالكلمات المعجمية ينهل منها الناشئة كما ينهلون من المعاجم اللغوية وهذا إتجاه قد سار عليه بعض العلماء حتى إن السيوطى فى كتابه المزهر قد حكى خلافا فيه فقال[٣] : « اختلف هل وضع الواضع المفردات والمركبات الإسنادية أو المفردات خاصة دون المركبات الإسنادية ، فذهب الرازى وابن الحاجب وابن مالك وغيرهم إلى الثانى ، وقالوا ليس المركب بموضوع وإلا لتوقف استعمال الجمل على النقل عن العرب كالمفردات ، ورجح القرافى والتاج السبكى فى جمع الجوامع وغيرهما من أهل الأصول أنه موضوع ، لأن العرب حجرت فى التراكيب كما حجرت فى المفردات ، وقال ابن إياز فى شرح الفصول فى قول ابن معط : الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع : كذا قال الجزولى . وكان شيخى سعد الدين يقول فيه غير ذلك ، لأن واضع اللغة لم يضع الجمل كما وضع المفردات ، بل ترك الجمل إلى اختيار المتكلم ، يبين ذلك لك أن حال الجمل لو كانت حال المفردات لكان استعمال الجمل

---

(١) انظر الكتاب المذكور ص ١٩٣ - طبعة وزارة الثقافة ١٩٦٩ بالجمهورية العربية المتحدة - نشر دار الكاتب العربى بالقاهرة .

(٢) زهر الآداب ج ١/٢٩٢ .

(٣) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ج ١/٢٦ - طبع محمد على صبيح (طبعة غير محققة) .

وفهم معانيها متوقفا على نقلها عن العرب ، كما كانت المفردات كذلك ، ولوجب على أهل اللغة أن يتتبعوا الجمل ويودعوها كتبهم — كما فعلوا ذلك بالمفردات » .

النقطة الثانية : وتتعلق بما قدمناه فى النقطة الأولى ـ أعنى مثالية المعانى ـ وهذه النقطة نقلها أبو إسحاق الحصرى عن قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) حيث قال (١) : « لما كانت فضائل الناس من حيث هم ناس ، لا من طريق ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق فى ذلك إنما هى العقل والعفة والعدل والشجاعة ، كان القاصد للمدح بهذه الأربعة مصيبا ، وبما سواها مخطئا ، وقد قال زهير :

أخى ثقة لا يتلف الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

فوصفه بالعفة لقلة إمعانه فى اللذات ، وأنه لا ينفد فيها ماله ، وبالسخاء لإهلاك ماله فى النوال ، وانحرافه إلى ذلك عن اللذات ـ وذلك هو العدل ، ثم قال :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

فزاد فى وصف السخاء بأنه بهش ولا يلحقه مضض ولا تكره لفعله .

ثم قال :

فمن مثل حصن فى الحروب ومثله
لإنكار ضيم أو لأمر يحاوله

---

(١) زهر الآداب جـ٢/٣٨٨ ، ٣٩٠ ، نقد الشعر لقدامه ص٥٦ ـ ٦٨ تحقيق كمال مصطفى ـ ط ٣ ـ نشر مكتبة الخانجى ١٩٧٨ .

فأتى فى هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل ، فاستوفى ضروب المدح الأربعة ، التى هى فضائل الإنسان على الحقيقة ، وزاد الوفاء ، وإن كان داخلا فى الأربعة ، فكثير من الناس لا يعلم وجه دخوله فيها حيث قال : أخى ثقة . فوصفه بالوفاء ، والوفاء داخل فى هذه الفضائل التى قدمناها .

« وقد يتفنن الشعراء فيعددون أنواع الفضائل الأربع وأقسامها ، وكل ذلك داخل فى جملتها ، مثل أن يذكروا ثقابة المعرفة ، والحياء ، والبيان ، والسياسة ، والصدع بالحجة ، والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة ، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، وهو من أقسام العقل ، وكذكرهم القناعة ، وقلة الشره وطهارة الإزار ، وغير ذلك من أقسام العفة ، وكذكرهم الحماية ، والأخذ بالثأر ، والدفاع ، والنكاية ، والمهابة ، وقتل الأقران ، والسير فى المهامه والقفار ، وما يشاكل ذلك . وهو من أقسام الشجاعة ، وكذكرهم السماحة ، والتغابن ، والانظلام ، والتبرع بالنائل ، وإجابة السائل ، وقرى الأضياف ، وماجانس هذه الأشياء ، وهو من أقسام العدل » .

« فأما تركيب بعضها على بعض فتحدث منها ستة أقسام : يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة : الصبر على الملمات ، وتوازل الخطوب ، والوفاء بالوعود ، وعن تركيب العقل مع السخاء : إنجاز الوعد ، وما أشبه ذلك ، وعن تركيب العقل مع العفة : التنزه والرغبة عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، وما أشبه ذلك ، وعن تركيب الشجاعة مع السخاء : الإخلاف ، والإتلاف ، وما أشبه ذلك ، وعن تركيب الشجاعة مع العفة : إنكار الفواحش ، والغيرة على الحرم ، ومن السخاء مع العفة : الإسعاف بالقوت ، والإيثار على النفس ، وما شاكل ذلك ، وكل واحدة من هذه الفضائل الأربع وسط بين طرفين مذمومين » .

وأقول فى بداية التعقيب على هذه النقطة : إن مصدر هذه الفكرة عند

قدامة ـ فيما أعتقد ـ هو ابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) حيث قال تحت عنوان « المثل الأخلاقية عند العرب وبناء المدح والهجاء عليها » ما نصه :(١) « وأما ما وجدته فى أخلاقها ومدحت به سواها وذمت من كان على ضد حاله فيه فخلال مشهورة كثيرة : منها فى الخلق الجميل والبسطة ، ومنها فى الخلق السخاء والشجاعة ، والحلم والحزم والعزم ، والوفاء ، والعفاف ، والبر ، والعقل ، والأمانة ، والقناعة ، والغيرة ، والصدق ، والصبر ، والورع ، والشكر ، والمداراة ، والعفو ، والعدل والإحسان ، وصلة الرحم ، وكتم السر ، والموالاة ، وأصالة الرأى ، والأنفة ، والدهاء وعلو الهمة ، والتواضع ، والبيان ، والبشر ، والجلد ، والتجارب ، والنقض والإبرام ، وما يتفرع من هذه الخلال التى ذكرناها من قرى الأضياف ، وإعطاء العفاة ، وحمل المغارم ، وقمع الأعداء ، وكظم الغيظ ، وفهم الأمور ، ورعاية العهد ، والفكرة فى العواقب ، والجد ، والتشمير ، وقمع الشهوات ، والإيثار على النفس ، وحفظ الودائع ، والمجازاة ، ووضع الأشياء مواضعها ، والذب عن الحريم ، واجتلاب المحبة ، والتنزه عن الكذب ، واطراح الحرص ، وادخار المحامد والأجر ، والاحتراز من العدو ، وسيادة العشيرة ، واجتناب الحسد ، والشكاية فى الأعداء وبلوغ الغايات ، والاستكثار من الصدق ، والقيام بالدية ، وكبت الحساد ، والإسراف فى الخير ، واستدامة النعمة ، وإصلاح كل فاسد ، واعتقاد المنن ، واستعباد الأحرار بها ، وإيناس النافر ، والإقدام على بصيرة ، وحفظ الجار ، وأضداد هذه الخلال : البخل ، والجبن ، والطيش ، والجهل ، والغدر ، والاغترار ، والفشل ، والفجور ، والعقوق ، والخيانة ، والحرص ، والمهانة ، والكذب ، والهلع ، وسوء الخلق ، ونوع الظفر ، والخور ، والإساءة ، وقطيعة الرحم ، والنميمة ، والخلاف ، والدناءة ، والغفلة ، والحسد ، والبغى ، والكبر ،

---

(١) عيار الشعر ١٨ / ١٩ .

والعبوس ، والإضاعة ، والقبح ، والدمامة ، والقماءة ، والابتذال ، والخرف ، والعجز ، والعمى .

« ولتلك الخصال المحمودة حالات تؤكدها ، وتضاعف حسنها ، وتزيد فى جلالة المتمسك بها ، كما أن الأضدادها ايضا حالات تزيد فى الحط ممن وسم بشىء منها ونسب إلى استشعار مذمومها ، والتمسك بفاضحها ، كالجود فى حال العسر موقعه فوق موقعه فى حال الجدة ، وفى حال الصحو أحمد منه فى حال السكر . كما أن البخل من الوافر القادر أشنع منه من المضطر العاجز ، والعفو فى حال المقدرة أجل موقعا منه فى حال العجز ، والشجاعة فى حال مبارزة الأقران أحمد منها فى حال الإحراج ووقوع الضرورة ، والعفة فى حال اعتراض الشهوات والتمكن من الهوى أفضل منها فى حال فقدان اللذات ، واليأس من نيلها ، والقناعة فى حال تبرج الدنيا ومطامعها أحسن منها فى حال اليأس وانقطاع الرجاء منها » .

« وعلى هذا التمثيل ، جميع الخصال التى ذكرناها ، فاستعملت العرب هذه الخلال وأضدادها ، ووصفت بها فى حالى المدح والهجاء مع وصف ما يستعد به لها ويتهيأ لاستعماله فيها ، وشعبت منها فنوناً من القول ، وضروباً من الأمثال ، وصنوفاً من التشبيهات » .

ثم أقول بعد ذلك : إن هذه الفكرة تثير فى نفسى شيئين :

أولهما : أن هذه الفكرة عربية الخلق والابتكار . وذلك واضح من مطلع وختام صريح قول ابن طباطبا العلوى . ومن استعانة قدامة فى شرحها بشعر زهير بن أبى سلمى - الشاعر الجاهلى المعروفة .

ومن هنا فإنى انقض فكر الدكتور طه حسين[1] ومن تابعه من المتعصبين

---

(١) نسبت هذا الفكر إليه ؛ لأنه — كما يزعم الدكتور إبراهيم سلامه فى كتابه (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) - ص ٥٠ - المعلم الثانى للعصر =

للبلاغة اليونانية الذين ما إن يروا شيئا يتلاقى فيه الفكر العربى مع الفكر اليونانى حتى يجلسوا الفكر العربى مجلس التلمذة البليدة التى لاتفهم مايقوله الفكر اليونانى ، إننى أرفض بشدة قول الدكتور محمد غنيمى هلال[1]: «وعلى الرغم من أن قدامة سبقهم - أى سبق النقاد العرب - إلى اقتباس فكرة أرسطو فى المدح بالفضائل النفسية ، فإنه تهافت فى أقسامها ، ولم يخرج منها بطائل يعتد به » .

ثانيهما : أن هذه الفكرة قد تابعها النقاد العرب فوافق عليها أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) فى الصناعتين[2] ، وابن رشيق القيروانى (ت٤٥٦هـ) فى العمدة[3] ، ورفضها الآمدى (ت ٣٧٠ هـ) فى الموازنة حيث قال[4] : «وقد غلط بعض المتأخرين فى هذا الباب ممن ألف فى (نقد الشعر) كتاباً غلطاً فاحشاً ، فذكر أن المدح بالحسن والجمال ، والذم بالقبح والدمامة ليس بمدح على الحقيقة ، ولازم على الصحة ، وخطأ كل من يمدح بهذا أو يذم بذاك فعدل بهذا المعنى عن مذاهب الأمم كلها عربيها وعجميها ، وأسقط أكثر مـــدح العرب وهجائها » .

ثم قال[5] : « وقد بينت قبح غلطه فى هذا تبييناً شافياً مستقصى فى كتاب منفرد ، يقصد كتابه تبيين غلط قدامة .

= الحديث ، الذى قدم المعلم الأول (أرسطو : أستاذ العرب فى المنطق والبلاغة) فى البحث الذى قدمه للمؤتمر الثانى عشر لجماعة المستشرقين الذى عقد فى مدينة ليدن فى سبتمبر ١٩٣١ بعنوان (البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر) .

(١) النقد الأدبى الحديث ١٧٨ (٢) الصناعتين ١٠٤

(٣) العمدة جـ ٢ / ١٣١ ، ١٢٢

(٤) الموازنة جـ ٢ / ٣٦٨ ، ٣٦٩

(٥) المرجع السابق جـ ٢ / ٣٦٩

وقد أقول فى التعقيب على كلام الآمدى : إن القبح والدمامة والحسن والجمال مما ورد فى حديث ابن طباطبا العلوى الذى رصد العرف العربى فى المدح والذم وغير ذلك - كما قال - أكبر الشواهد فى الرد على قدامة ، وإن كان الرأى عندى سيكون فى نهاية عرض حديث العلماء .

هذا ، وقد تابع ابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦ هـ) الآمدى فى رفضه كلام قدامة ، فقال فى سر الفصاحة ما نصه(١) : « وهذا الذى ذكره أبو القاسم - أى الآمدى - صحيح ، ولو لم يكن فى ذلك إلا ما قد جبلت النفوس عليه من الميل إلى الوجوه الحسان لكفى وأغنى ، فإن كان قدامة يعتقد أن ذلك ليس بفضيلة لما كان الإنسان قد خلق عليه فهذا حكم الفضائل النفسية ، فإن الكريم قد خلق كريما ، والشجاع شجاعا ، فكما لا يقدر القبيح الوجه أن يستبدل صورة غير صورته ، فكذلك الجاهل لا يقدر أن يستفيد عقلا فوق عقله » .

ولكن حازم القرطاجنى أيد كلام قدامة قائلا عن حديث الاعتراض عليه(٢) : « هذا غير صحيح ؛ لأن الحكماء المتكلمين فى الفضائل قد اتفقوا على أن الإنسان قد يقدر على أن يكتسب بعض الفضائل بالتطبع ، وأن يستكمل كثيراً مما نقصه من ذلك بالاعتياد والرياضة ومجاهدة النفس ، فينتقل برياضة النفس فى ذلك حالا فحالا حتى يصير الصعب قبل التطبع والارتياض سهلا بعدها ، ومازال الناس يروضون أخلاقهم بالتأدب والتدرب فتترقى بذلك فى مراتب الفضل درجاتهم ، وتتهذب بعد الجفاء أخلاقهم ، قيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم ، ولا بد فى حصول هذا التطبع من سابق استعداد لتحصيله بالطبع فيخرج إلى الفعل بعد كونه فى القوة » .

---

(١) ص ٢٥٠

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ١٦٩

فأما خلقة الإنسان وصورته فليس فى قدرته نقل شىء منها عما وجد عليه، فحمد الإنسان بما يستحسن من هذا القبيل مخادعة له ، وذمه بما يستقبح من ذلك تحامل عليه ، ويشهد لهـــذا ماحكاه الرواة من أن المغيرة بن حبناء ، وزياداً الأعجم لم يزالا يتهاجيان حتى عيره زياد بعلل كانت أصابت بعض أهـــل بيته ، فقال المغيرة : « ماذنبنا فيما ذكره ، هذه أدواء ، وإنما يعير المرء بما اكتسبه » .

وأقول :

إن الواقع الأدبى يبتعد عن هذا التفكير ابتعادا شديدا ، ذلك أن التفنن الأدبى فى تصوير العواطف الصادقة للشعراء يستطيع أن يخلق من كلا العيوب الخلقية والنفسية صفات مدح جيدة ، كما يستطيع أن ينتج من صحة الخلقة وطهارة النفس مساوىء وعيوبا مفزعة ، وأحاديث كتب التراث عمن رفعه أو وضعه الشعر فى هذا المجال من أن تذكر ، ومانحفظه من صور حسن التعليل وصور تزيين المشبه أو تقبيحه فى كتب البلاغة ونحن طلاب أوضح من أن تخفى فتستحق التنبيه عليها .

وإذا كان لى أن أذكر شيئا من الأمثلة فسأبتعد عن المشهور المعروف لأذكر شيئا من حديث الجاحظ عن ذكاء العربى الذى يحول الأشياء عن وجهتها الظاهرة ، يقول الجاحظ فى كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان(١) « ويكون الأعرابى شختاً مهزولا ، ومقرقماً ضئيلا ، فيجعل ذلك دليلا على كرم أعراقه وشرف ولادته ، قال الأصمعى : قلت لغلام أعرابى : مالى

---

(١) ص ٢٣/٣٤ ، والشخت : الدقيق من كل شىء ، والمقرقم : البطىء الشباب ، الذى لايشب ، والأتاوى ـ بالفتح ـ : الغريب لايدرى من أين أتى ، والضاوى : النحيف المهزول .

أراك ضعيفا نحيفاً ، وصغير الجسم قليلا مهزولا ؟ قال : قرقنى العز ...
وأنشدوا قول الآخر :

قد علمت أنا أتاويان   من كرم الأعراق ضاويان

وأنشدوا :

قرقه العز وأضواه الكرم

ويعلق الجاحظ على مانقل فيقول : « وليس العجب فى قوله : إن الأعراق تضوى ، وإنما العجب فى قوله : إن العز يقرقم » .

ويقول أيضا[1] : « لما انهزم الناس يوم أبى فديك كان عباد بن الحصين فى المنهزمين ، وهو يصيح بأعلى صوته : أنا عباد بن الحصين !

فقال له بعض المنهزمين : فلم تنوه باسمك على هذه الحال ؟ قال عباد : لكيلا تركبنى غمرة » .

والغمرة من قولهم : رجل مغمور ، أى ليس بمعروف مشهور ، ويعلق الجاحظ على فكرة عباد بن الحصين فيقول : « ألا ترى أن عباداً صحيح التدبير فى حال انهزامه . وقد ترك القتال عن غير جبن . وترك القتال كى لا يقتل ضياعا ، وعباد فارس الناس غير مرافع » .

وفحوى حديث الجاحظ بإيجاز فى الموضع الأول يفيد أن الأعرابى قد اتخذ من عيب جسمه الخلق صفة مدح ، كما أن الموضع الثانى يشير إلى أن الفرار من الزحف وهو أمر معيب من جهة الفضائل النفسية حيث هو ضد الشجاعة قد تحول إلى صفة مدح يقرها العرف العربي إذا نظرنا إلى عباد بن الحصين ، ويؤيدها النقد العربي إذا نظرنا إلى الجاحظ . وذلك من التفنن الأدبى بمكان .

بل أكثر من هذا ينقل الجاحظ أن العربي من ذكائه يفتخر بالعيب

---

(١) ص ٢٢ (المرجع السابق) .

الجسمى من مرض وغيره فيقول(١) : «وممن نجل بالبرص المحجل ، وكان بساقيه وضح ؛ واسمه معاوية بن حزن بن موءلة بن معاوية بن الحارث ، وقد رأس ، وسمى المحجل على الكناية من البياض ، والكناية أيضا من البرص ، وهو الذى يقول :

يا مى لاتستنكرى نحولى ووضحاً أوفى على خصيلى
فإن نعت الفرس الرجيل يكمل بالغرة والتحجيل »

ولعل من الجدير بالذكر أن أنقل بجوار هذا النص أبيات جرير التى يهجو بها زوج ابنته الأبلق (الأبرص) حتى تكون تعقيبا عمليا عليه ، وهى أبيات ذكرها الجاحظ فى كتابه السابق أيضا(٢) :

يا أبلق الكشح إن الناس قد علموا
أن المهاجر تخزى كل كذاب
لو كنت شاورت ذا عقل فأرشدنى
يوم الفريقين ما دنست أثوابى
قد كنت عندك قبل الفعل ذا أدب
مستحكما بعراقى الدلو أكرابى
لو كنت صاهرت ، إن الصهر ذو نسب
فى مازن أو عدى رهط منجاب

---

(١) ص ٣٠ (المرجع السابق) ، وأوفى: أشرف، والخصيل: جمع خصيلة ، وهى الخصلة من الشعر ، والرجيل من الإبل والدواب : الصبور على طول السير .

(٢) ص ٤٢ ، والمهاجر : بفتح الميم : الهجر . والهجر (بالضم) : القبيح من الكلام ، ذا الجلدة البلقاء : أى ياذا الجلد الأبلق (الأبرص) ، والسوف : الشم ، والكودان : جمع كودن ، وهو البرذون الهجين ، وقيل : هو البغل ، والرابى : الذى أخذه الربو ، وهو البهر والنهيج وتتابع النفس .

ما كنت ، ذا الجلدة البلقاء ، تعجبني
سوف السوابق ريح الكودن الرابي

بقي من حديث شروط النص المختار عند الحصري شرط أخير هو أن يدل فحوى الكلام على مغزاه ، وأقول في بداية الحديث عن هذا الشرط : إن أول مايلفت النظر في حديث الحصري أن هناك دلالتين للكلام تفضل الثانية فيهما الأولى : دلالة للفظ المركب على المعنى ، ودلالة لفحوى هذا اللفظ المركب على المغزى ، وإذا كنا قد أشرنا لمكان حديث الدلالة الأولى في كتب الأدب والنقد وأثرها على حسن اللفظ ، فإن لنا أن نقول في الحديث عن الدلالة الثانية : إنها مما اقتبسه علماء البلاغة من علم الأصول ، ونستشهد في هذا المقام بحديث الغزالي في كتابه المستصفى من علم الأصول[1] : «دلالة اللفظ على الحكم من ثلاث جهات هي : الصيغة والمنظوم، والفحوى والمفهوم، والمعنى والمعقول»، فمعنى هذا القول من الغزالي أن علماء الأصول يرون أن دلالات الكلام المعتبرة في استنباط الأحكام الشرعية هي هذه الجهات الثلاث[2]، ولذلك يقول الغزالي عن دلالة الفحوى[3] : « المفهوم بالفحوى - كتحريم ضرب الأب حيث فهم من النهي عن التأفيف - أي في الآية الكريمة التي توصي بعدم عقوق الوالدين (فلا تقل لهما أف) - فهو قاطع كالنص ، وإن لم يكن مستندا إلى لفظ ، ولسنا نريد اللفظ بعينه ، بل لدلالته » .

ثم نقول: لقد انتقلت هذه الدلالة إلى علماء البلاغة والنقد، واتخذت مكانها من الدلالة ، ليس فقط على المعنى الأدبي ، بل على الحسن الأدبي - كما أشار

---

(١) انظر ج/١٤٥ ،

(٢) لعل المفهوم عند الأصوليين يقابل الكناية والتعريض . والمعقول عندهم يقابل القياس ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(٣) المستصفى ج ٢/٢٨، والنص الكريم جزء من الآية رقم ٢٣ من سورة الإسراء .

الحصرى ، وكما أشرنا من قبل فى الحديث عن غرابة استبهام المعنى ، ولذلك أوردها أبو هلال العسكرى ضمن حديث تعريفات البلاغة فيما نقله عن جعفر ابن يحيى[1] : « البلاغة : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة ، ويكون سليما من التكلف ، بعيداً من سوء الصنعة ، بريأ من التعقيد ، غنيا عن التأمل » ثم شرحها خلال شرحه لكلام جعفر السابق ، فقال[2] : « قوله : يجلى عن مغزاك : أى يوضح مقصدك ، ويبين للسامع مرادك » ثم قال معلقا : « ينهى عن التعمية والإغلاق » .

وأقول : لعل هذا التعليق من أبى هلال هو الإشارة الوجيزة لما سبق أن أوضحناه مفصلا .

وبعد ، فإن يكن مقالنا هذا قد أشار إلى شىء من بلاغة أبى إسحاق الحصرى ونقده ، فإن كتاب هذا العالم الأديب يحتاج إلى جهد كبير للكشف عما فى طواياه من كنوز بلاغية ونقدية ، وقد يسعف الزمان أن نلم به مرة أخرى ، أو يهدى الله أحد الباحثين إليه فينكشف لنا من ذلك خير كثير ، وعلم وفير ، والله وحده المستعان ، وهو الهادى سواء السبيل .

---

(١) الصناعتين ص ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٩ .

رات
.com